الفصل الثالث

اليهود فى عقل الأدباء الصهاينة

طرحت الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية ومن ثم نجد أن الأدباء الصهاينة اهتموا أيما اهتمام باليهود والمسألة اليهودية ، ومن أهم هؤلاء جوردون وبيرديشفكى وجوزيف بياليك وشاؤول تشرنحوفسكى :

يهودا جوردون (١٨٨٣م - ١٨٨٢م)

شاعر وقاص وناقد كتب بالعبرية، وهو من مواليد ليتوانيا . ويُعدُّ من أهم دعاة حركة التنوير اليهودية ومن أهم المعبِّرين عنها ، ولكن فكره وتمرُّده ضد التراث الدينى اليهودى يشيان بما فى داخله من بذور الصهيونية .

تلقىَّ جوردون تعليماً تقليدياً فى طفولته . وفى سن السابعة عشرة ، تلقى تعليماً غربياً حديثاً ، ودَرَس عدة لغات (الروسية الألمانية البولندية الفرنسية الإنجليزية) . وتخرَّج فى إحدى الكليات التربوية الحكومية عام ١٨٥٣م وعمل مدرساً فى مدارس الحكومة .

انضم جوردون إلى جماعة من دعاة حركة التنوير كان من أهم أعضائها شاعر العبرية أبراهام دوف ليبنسون وابنه ميخا . تبنَّى جوردون

فكر حركة التنوير تماماً ، وشن هجوماً شرساً على التقاليد الدينية ، واتهم اليهودية بأنها دين متحجر يحوّل اليهود إلى شعب من الكهنة ، وطالب بإدخال القيم المادية العلمانية فى حياة اليهود . وكان مديراً لجمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا ، وهى من أهم جمعيات نشر مُثُل حركة التنوير.

كتب جوردون كتابات نثرية عديدة ، من بينها مقالات بالعبرية والروسية . ولكن إسهامه الأدبى الأساسى هو أشعاره ، ويُقسّم النقاد أدبه إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة رومانسية ، وأخرى واقعية :

١ - المرحلة الرومانسية : وهى المرحلة التى قاد فيها حركة التنوير التى تهدف إلى إصلاح اليهود وتحويلهم إلى شعب منتج . وتتناول قصائده فى هذه المرحلة الموضوعات التاريخية والتوراتية وبعض الموضوعات السائدة فى عصره ، وإن كان تناوله ليس مباشراً أو واقعيا . وتعكس قصيدة « داود وبرزيلاى » (١٨٥١م - ١٨٥٦م) الدعوة إلى العودة للأرض . وتؤكد القصائد الأخرى فى هذه المرحلة روح الاعتزاز بالذات القومية التى كان يرى جوردون أنها تنعكس فى بعض شخصيات العهد القديم .

واهم قصائد هذه المرحلة قصيدة « بين أنياب الأسد » (١٨٦٨م) التى تحكى قصة سيمون برجيورا (أحد أبطال التمرد اليهودى الثانى ضد الرومان) ونهايته المأساوية . وفى هذه القصيدة ، ينحى جوردون باللائمة على التعاليم الحاخامية التى أدّت باليهود إلى رفض الحياة وقبول

العبودية ، وإلى أن يقبعوا خلف الأسوار ويكونوا موتى فى الأرض أحياء فى السماء « فتراب كتابكم وأوراق أحاديثكم الجافة غطتكم تماماً وجعلت منكم مومياء حية لعدة أجيال » .

ومن الواضح أن رومانسية جوردون من النوع النيتشوى الذى يُمجد القيم العضوية والحيوية وقيم البطولة . ومن أهم قصائد هذه المرحلة أيضاً قصيدة « استيقظ يا شعبى » (١٨٥٦م) ، وهى دعوة لليهود أن يتبنوا مُثُل حركة التنوير وأن يخرجوا من ظلمات الجيتو ويتعلموا العبرية وينبذوا اليديشية ويعملوا فى الحرف اليدوية المنتجة وفى الصناعة والزراعة . وقد اختتم هذه القصيدة بالكلمة المأثورة التى أصبحت فيما بعد شعاراً لهذه الحركة : « كن يهودياً فى بيتك وإنساناً خارجه » . ومع هذا ، يظل التوجه نحو فكرة الشعب العضوى (فولك) ، والكتلة القومية المتماسكة وليس نحو الفرد ، على عكس مثل حركة الاستنارة التى كانت تتوجه أساسا إلى الفرد . ومن أهم أعمال هذه الفترة القصص الخرافية الوعظية التى كتبها جوردون على نمط خرافات إيسوب ولافونتين وكريلوف وسخر فيها من معاصريه أعضاء الجماعات اليهودية الذين نبذوا مُثُل حركة التنوير وعاشوا فى الظلام (بحسب تصوُّره) .

٢ – المرحلة الواقعية : يشكل عام ١٨٦٧م نقطة حاسمة فى حياة جوردون ، إذ وقف إلى جانب ليلينبوم فى دعوته إلى الإصلاح الدينى . وكانت قصائده فى هذه المرحلة هجوماً مباشرا لا هوادة فيه، فى شكل قصص ساخرة ، على الخرافات الدينية والمحلال الحياة الدينية الذى أدت

إليه الشعائر اليهودية التى كان يرى جوردون أنها معاديه للحياة . وأهم القصائد هى « اليود [الياء] أو أتفه الأشياء » التى أتمها عام ١٨٧٦م ، وهى تتناول مأساة امرأة شابة مطلقة لا يمكنها أن تتزوج مرة ثانية لأن الحاخام رفض الاعتراف بقسيمة الطلاق لأن توقيع زوجها ينقصه حرف اليود (أى حرب الياء وهو أصغر الحروف فى اللغة العبرية) ، ولذا فهى تظل مطلقة (عجوناه) لا يحق لها الزواج. أما قصيدة « اليوسفان بن سيمون » ، فهى هجوم على القهال ورئيسه الذى تآمر وأرسل أحد دعاة حركة التنوير ، ويُسمَّى يوسف بن سيمون ، إلى السجن بدلا من لص قاتل يحمل نفس الاسم .

ومن قصائد هذه المرحلة قصيدة « الملك صدقياهو فى السجن » ، وهى مونولوج درامى يعبِّر عن احتجاج آخر ملوك يهودا ضد روحانية الأنبياء التى قضت على حياة اليهود العادية والطبيعية وعلى وجودهم السياسى . وهذا الموضوع كامن ومتكرر وأساسى فى الأدبيات الصهيونية ذات الطابع النيتشوى .

وقد أخذت الموضوعات الصهيونية تظهر على السطح بشكل أكثر تزايداً ووضوحاً ، ففى قصيدة « لمن أعمل » يلاحظ الشاعر أن مُثُل حركة التنوير أدّت إلى اندماج الشبان اليهود فى مجتمعهم . وهذا تناقُض كامن فى حركة التنوير العبرية ، فهى تدعو إلى الاندماج فى المجتمع ، وفى الوقت نفسه تدعو إلى بعث العبرية التى تعزل المتحدثين بها عن مجتمعهم . ولذا ، نجد أن هذا الداعية للتنوير يقول « من بوسعه أن يخبرنى عن المستقبل ، لعلى آخر شعراء صهيون ولعلك آخر القراء » .

وبعد تعثُّر التحديث فى روسيا عام ١٨٨١م ، نبذ جوردون مُثُل الاندماج ولكنه لم يتبن فكرة هجرة اليهود . وفى قصيدته « أخى روحاماه » (١٨٨٢م) ، يدعو جوردون اليهود إلى الهجرة ولكنه يرى أن الهجرة يجب أن تكون إلى الولايات المتحدة لا إلى فلسطين العثمانية . وقد وصل جوردون إلى صيغة صهيونية تشبه الصيغة الآحاد هعامية « لن يتحقق خلاصنا الروحى » . وقد أشار آحاد هعام إلى دَينه الفكرى لجوردون . وجوردون هو الذى أشاع عبارة « يا بيت يعقوب هلم فلنسلك فى نور الرب » (أشعياء ٢/٥) التى استخدمها فى مقال له عام ١٨٦٦م ونادى فيها بأن يصبح اليهود جزءا من أوربا . وقد أصبحت فيما بعد شعاراً لأعضاء جماعة البيلو الذين استوطنوا فى فلسطين . ولعل هذا يبيِّن التناقض الكامن فى مُثُل حركة التنوير اليهودية .

وكتب جوردون نقداً لكتاب بنسكر **الانعتاق الذاتى** ، ولكنه كان نقداً متعاطفاً ، كما أنه عبَّر عن حماسه لاستعمار إنجلترا لمصر عام ١٨٨٢م إذ رأى أن هذا الاحتلال سيزيد من أهمية فلسطين كممر إلى مصر ومركز للتجارة الآسيوية « وقد يجذب الحكم البريطانى كثيراً من إخواننا الدياسبورا ليستقروا فى فلسطين ليحرثوا أرضها ويبنوا السكك الحديدية ويحيوا التجارة والفنون والحرف » . ونادى بإنشاء جمعية من أجل الذاهبين إلى فلسطين ، أى إنه تبنى المشروع الصهيونى بكل أبعاده .

ورغم أهمية جوردون كشاعر يكتب بالعبرية ، فإن كثيرا من النقاد يميلون إلى القول بأنه لم يكن شاعراً وإنه كان ناظماً للقصائد ومهيجاً اجتماعياً بالدرجة الأولى . وقد ترجم جوردون كثيراً من الأشعار الغربية إلى العبرية ، وهو يُعَد من المجددين فى الشعر المكتوب بالعبرية .

ميخا بيرديشفسكى (١٨٦٥م - ١٩٢١م) :

كاتب روسى ومفكر صهيونى رومانتيكى كونى النزعة حلولى الرؤية كان يكتب باليديشية والعبرية . وُلد فى مدينة ميدزيبوز الروسية ، مَهْد الحسيدية فى القرن الثامن عشر ، ونشأ فى عائلة عريقة فى التدين ، وكان أبوه حاخاماً ، وفى سن السابعة عشرة كان بيرديشفسكى قد تلقّى تعليماً كاملاً وألم بكل تعاليم القبّالة والحسيدية .

حاول فى كتاباته الأولى أن يفعل ما وصفه فيما بعد بأنه المستحيل : التوفيق بين التقاليد الحاخامية وحركة الاستنارة اليهودية . وفى عام ١٨٩٠ ، انتقل إلى أوربا الغربية ليتلقى شيئا من التعليم العلمانى (المحرم) . وأثرت فيه هذه الفترة القصيرة ووسمته بسماتها . ثم بدأ بعد ذلك فى الترحال بين برن وبرلين حيث قضى أكثر فترات حياته إبداعاً .

كتب بيرديشفسكى (اسمه الأدبى المستعار « بين جوريون » كثيرا من المقالات النقدية والقصص القصيرة والطويلة العبرية اليديشية . وتأثر بيرديشفسكى بأفكار شوبنهور بشأن علاقة الفرد بالجماعة ، وتأثر أيضاً بأفكار نيتشة وبخاصة أفكاره بشأن السوبرمان أو الفرد الممتاز المتميز

الذى يرتفع على الجماعة والتقاليد ، كما تبع نيتشة فى إصراره على « إعادة تقييم جميع القيم » وإخضاعها للنقد الكامل . لكل هذا نجد أن بيرديشفسكى يهاجم التقاليد اليهودية الروحية فى خضوعها وخنوعها وفى تكبيلها للإنسان بالطقوس الميتة . كما هاجم بعض أدباء العبرية (بياليك وكلاوزنر) واليديشية (مندلى موخير سيفاريم) ولكنه شجع بعض الأدباء الجدد مثل حاييم برنر ممن يشاركونه رؤيته للعالم . وقد هاجم بيرديشفسكى وبشدة جماعة أحباء صهيون وآحاد هعام لأن الأخير أكد أهمية ما سماه « القيم الروحية » ، ولعله لو قرأ كتاباته بقليل من الإمعان لاكتشف النزعة النيتشوية القومية فيها ، ولاكتشف أيضاً أن مفهوم آحاد هعام بشأن « السوبر أمة » أو الأمة الكاملة لا يختلف كثيراً عن مفهوم السوبرمان أو الإنسان الكامل ، ولاكتشف أن القومية العضوية مفهوم يجمع بينه وبين آحام هعام ونيتشة . كتب بيرديشفسكى أكثر من ١٥٠ قصة بالعبرية وكتب بعض القصص باليديشية . وتصوِّر قصصه تمزُّق اليهودى فى العصر الحديث بين تقاليد اليهودية وروح الحضارة الغربية ، والشتتل هو الخلفية الأساسية لعديد من هذه القصص التى تتضمن نماذج بشرية مختلفة تجابه مشاكل يهودية محددة مثل التقاليد الخانقة والزيجات الاضطرارية المرتبة . وتعالج القصص الدوافع الإنسانية لهذه الشخصيات فى تصارعها مع كل هذه العوائق والحواجز . وتدور معظم قصصه حول موضوعين أساسيين :

١ – الحياة اليهودية فى المدن اليهودية الصغيرة فى آخر القرن التاسع عشر التى يقسمها دائما نهر يفصل حى اليهود عن حى الأغيار.

٢ – حياة الطلبة اليهود من شرق أوربا فى وسط أوربا وغربها وإحساسهم بالانبهار والاغتراب .

ويمكن القول بأن هذين الموضوعين هما أهم موضوعين فى حياة معظم المفكرين الصهاينة ، بل ومعظم المفكرين والأدباء الذين تناولوا الموضوع اليهودى . وثمة صراع يدور بين الخير والشر وبين الجمال والقبح ينتهى بهزيمة الخير والجمال . فالشتتل – ساحة هذا الصراع – قد وقع فى قبضة قوة عمياء قاسية . وتوجد فى روايته أنماط إنسانية متكررة : امرأة ذكية رقيقة متزوجة من إنسان فظ خشن – رجل لا قسمات له ولا ملامح طالب متمرد على أوضاع مجتمعة – أشخاص يقضون حياتهم يعانون من الزيجات المُرتَّبة – شخصيات متمردة على التراث اليهودى مثل المهرطقين ومدَّعى المشيحانية . ومعظم قصصه ذات طابع انطباعى تتكون من مونولوجات عاطفية مع استطرادات هى أقرب إلى المقالات . وطريقة السرد فى قصصه تشكل انتقالاً من أشكال السرد الخاصة بالقرن التاسع عشر إلى الأشكال الأكثر دقة .

جمع بيرديشفسكى بعض الأساطير الحسيدية ، واهتمامه بالحسيدية رغم تمرده على التراث يَصلُح مدخلا لفهم فكره الصهيونى . فهو يعيد تقييم اليهودية ويذهب إلى أن اليهودية القديمة إنما هى فى واقع الأمر العبادة اليسرائيلية القربانية الوثنية، التى تدور حول عبادة الطبيعة والكون والأصنام ، وان الطبقة التوحيدية (التوراتية) دخيلة على هذه العقيدة . وفى كتابه سيناء وجيرزيم ، يذهب بيرديشفسكى إلى أن مؤسس العقيدة اليسرائيلية هو يوشع بن نون وليس موسى . فكأن بيرديشفسكى يطالب

بالعودة إلى الوثنية الحلولية القديمة كطريقة للتحرر من اليهودية الحاخامية . فالبعث القومى بعث كون وثنى حلولى ، وعلى اليهود أن يرفضوا عبوديتهم الظاهرة التى حولتهم إلى أمة من الرحال الذين نضبت قواهم الطبيعية واستوعبُوا فى يهودية مجردة خالية من الحياة . عليهم العودة إلى يهودية جديدة : يهودية تضع اليهودى قبل اليهودية وإسرائيل قبل التوراة ، وتعيش فى وئام مع الطبيعة ، وتتغنى بنشيد الأنشاد الذى يحتفى بالجسد وبنشيد داود الذى يتغنى بالطبيعة السامية التى لا حدود لها ، الطبيعة التى هى منبع كل شئ ، مُنبعُ كل ما يحيا وروحه . هذه الوثنية الجديدة ترى أن جوهر الحياة هو السيف ، بل هو تجسيدها فى أعرض خطوطها المادية والجوهرية إذ حل السيف محل التوراة . وهذه العودة للطبيعة هى برنامج بيرديشفسكى لإصلاح اليهود واليهودية ، وعلى حد قوله فإن الشعب المقدَّس سيصبح الحىّ .

ويمكننا أن نسمى صهيونية بيرديشفسكى « الصهيونية الطبيعية » أو « الصهيونية الكونية » أو « الصهيونية العضوية » باعتبار أن الإنسان اليهودى سيستمد هويته وكينونته من خلال العودة للطبيعة والالتحام بها وبفقدان الذات فيها . ولكن الطبيعة التى يعود إليها هى فى واقع الأمر بديل الأرض فى الثالوث الحلولى العضوى فى مرحلة موت الإله : الأرض الإنسان روح الحياة التى تربط بينهما (التى هى أيضاً العنف أو السيف) . ومثل هذه الصياغة الحلولية العضوية الحيوية لا تختلف عن كثير من الصياغات اليهودية التقليدية ، فاليهودية تحوى داخلها طبقة حلولية تُحبُّ الطبقة التوحيدية بحيث تحل أصنام جرزيم محل التوحيد .

وصهيونية بيرديشفسكى لا تختلف كثيراً فى بنيتها عن صهيونية جوش إيمونيم الحلولية العضوية ، فكلاهما جعل الأرض موضع الحلول وأهم عناصر الثالوث الحلولى . ولعل هذا التشابه بين المتمرد بيرديشفسكى ومعظم الصهاينة جعله يُفسِّر سرَّ حماسه للحسيدية وقصصها . ويمكننا أن نقول إن بيرديشفسكى لا يعارض الحلولية التقليدية وإنما يعارض سكونها وحسب ، وهو سكون اضطرت إليه بعد فشل كثير من الحركات المشيحانية فتحولت النزعة المشيحانية العدمية المدمرة إلى توحُّد نفسى وغوص فى الذات ، عدميته وتدميريته كانت موجودة بالقوة ، ثم تفجرت فى الدولة الصهيونية وأصبحت توجد بالفعل . وقد صدرت أعمال بيرديشفسكى الكاملة فى ٢٠ جزء (١٩٢١ م - ١٩٢٥م) .

جوزيف برينر (١٨٨١م - ١٩٢١م)

مؤلف روسيى يهودى يكتب بالعبرية واليديشية ، تأثر بأعمال بيرديشفسكى وبرؤيته للحياة وبأعمال مندلى موخبر سيفاريم . وتأثر ، شأنه شأن كثير من المؤلفين الذين يكتبون بالعبرية فى عصره ، بأعمال دوستويفسكى وتولستوى ونيتشة . وُلد فى أوكرانيا ، ودرس في إحدى المدارس التلمودية العليا ، ثم عمل ككاتب (سوفير) حيث كان يكتب رقائق التوراة والتمائم ، وانضم إلى حزب البوند . وقد كتب بعض القصص من أهمها روايته القصيرة **فى الشتاء** (١٩٠٢م) التى تُعَدُّ أول أعماله الروائية المهمة .

عاش برينر بعد عام ١٩٠٠م فى وارسو ، وخدم فى الجيش الروسى بين عامى ١٩٠١ م و ١٩٠٤م ، ولكنه هرب إلى لندن حيث نشط فى جماعة عمال صهيون ، ثم بدأ العمل بالطباعة والنشر والتأليف بعض الوقت ثم استقر فى فلسطين حيث قام بتدريس العبرية فى يافا عام ١٩١٥م ، ثم اضطر إلى تركها . ولكنه عاد مع القوات البريطانية واستمر فى نشاطاته الصهيونية العديدة التى كان من أهمها المساهمة فى تأسيس الهستدروت . وقد قُتل عام ١٩٢١م أثناء بعض أعمال المقاومة العربية ضد الاستعمار البريطانى والصهيونى .

وُصفت أعمال برينر الروائية بأنها انعكاس مباشر للحياة ولحياته هو على وجه التحديد ، ولذا نجد أن الراوى فيها هو الشخص الأول (المتكلم) . ومهما اختلفت الأسماء والشخصيات الأساسية فهم فى نهاية الأمر برينر نفسه : يورمان فى قصة « فى الشتاء » وأبراسون فى قصة «حول النقطة»، وإليعازر فى قصة «فى المساء والصباح» ، ويوحانان ماهاراشك فى قصة « خلف الحدود » ، وشاؤول جمسو فى قصة « بين الحروب » ، ويحزقئيل حيفز فى قصة « الفرار والفشل » . وتأخذ أعماله الأدبية الأشكال التالية :

١ – القصة الوثائقية التى تتبع منهج التعاقب التاريخى .

٢ – المذكرات التى تم تحريرها وتحويرها .

٣ – الراوى الذى يرى الأحداث بعينه ولكنه لا يشارك فيها .

وتُقدِّم كثير من شخصيات برينر اعترافاتها وتكشف خبايا نفسها بنفسها ، وهى شخصيات تُغيِّر مكان إقامتها لتكتشف أن هذا لا يجدى

فتيلا إذ أن الخلل فى الداخل ، ولذا فهى تنتهى بالإحساس بالمرارة تجاه نفسها وتجاه العالم . وكثير من أبطاله هم أبطال مضادون ، بعضهم قد يبحث عن معنى لحياته ، أو عن هويته والبعض الآخر يستسلم تماما لقدره (من أهم أعماله رواية من هنا وهناك وهى مستوحاة من حياة جوردون الذى تتضمن شخصيته قدرا من الإيجابية والتفاؤل) .

حاول برينر أن يقدم الواقع من خلال لغة الحديث العبرية ، وهى لغة لم تكن موجودة آنذاك ، ولذا فقد حاول تطعيم اللغة بكلمات ومفردات من اليديشية والروسية والألمانية . كما أن بنية الجملة ذاتها كانت تعكس محاولته أن يدخل الحياة على أسلوب العبرية الحديثة ، ولذا فقد كان كثيرا ما يلجأ إلى التكرار واستخدام الجمل الناقصة وعلامات الاستفهام والتعجب وكان لا يستخدم الصور الشعرية إلا فى اللحظات التى تصل الأحداث فيها إلى الذروة .

هاجم برينر آحام هعام وكان محور الصراع مفهوم المنفى . فبرينر كان يعبر عن وجهة النظر الاستيطانية العمالية بكل شراستها وتبلورها وتطرفها ذاهبا إلى أن يهود العالم كيان لابد من تصفيته ، ومهمة اليهود هى الاعتراف بوضاعتهم منذ بدء التاريخ حتى يومنا .